الباب الرابع:

على جناح التصوف

obeikan.com

من صوفية النص إلى تصوف القصيدة

و (الإشارة) عند أحمد موسى

يقول السهروردي :
واااارحمتا للعاشقين تحملوا
كتم المحبه والهواء فضاح
بالسر إن باحوا تباح دمائهم
وكذا دماء العاشقين تباح

لم تكن القصيدة عند الصوفية سوى بعضَ روحٍ من روح، وهمسَ شوق من شوق و جروح، في حضرة هي ذات الحب والمحبوب ، مناجاة حانية، يخشى بها المحب أن يبوح بما يكابده من مواجد و أسرار يهيم بها شقاءً ومتعة، فعندهم البوح هتكا للحُجب و الأستار و إفشاءا للسر و الإسرار ، بوحهم الشعري ما هو إلا تسبيحا وكأس خمرٍ يشربونه في سكرة العاشق الوجل، فقد كان حديثهم شعرا أو شعرهم حديثا على وجل من أن يبوحوا فيُقتلوا بالطرد من حضرة المحبوب، فعندهم البوح قتل وهتك للسر يُحرمون به لذة الأنس وحلاوة المكابدة .
فعند سلطان العاشقين (ابن الفارض) وعند كل صوفي حق، صمته بوح وبوحه صمت، فهم على كل حال في

حضرة التجلي لا ينطقون إلا به وله كما يقول ابن الفارض :

وجدي حنيني انيني لهفتي ولعي
منهم إليهم عليهم فيهمُ بهمِ

نعم ، لقد كانت القصيدة عندهم ليست قصيدة شعر للتغني فقط، بل ذكرا وتسبيحا ومناجاة على الأعتاب . وإذا تأملنا شعراء العصر الحالي نجد أنهم قد أجهدوا أنفسهم و أجهدوا الحرف والقصيدة معهم - إلا من وصل - من أجل أن يلحقوا بذلك العالم الصوفي الرحيب، ظنا منهم أن صوفية الروح هي إنشاد الشعر والتغني في حضرة المحبوب، يشربون كأس اللقيا ويترعون خمرة التجلي، متناسين أن الشعر الصوفي الحق ما هو إلا بعض من بوح مما تمتلئ به أرواحهم، فشعرهم بعض من مكابدة، فعندما يفيض بهم الأسى قد يبوحون ببعض الجوى في غفلة عن النفس،ظفرة و أسى .

ولنقف قليلا أمام قصيدة متصوفة للشاعر أحمد موسى وهي قصيدة (الإشارة) من ديوانه (نار موسى)، وما أراها إلا محاولة جيدة من مريد يقتفى أثرهم، علّه يحظى بلحظة تجلى مثلهم، ولكن قبل الولوج إلى رحاب قصيده لابد من التمييز بين تصوف النص وصوفية النص، فعند ابن الفارض وابن عربي وابن

الرومي وغيرهم ممن سبقوا، لم يكن هناك تصوف النص، بل صوفية خالصة للنص، فلم يكونوا ليقرضوا الشعر في التغني والتجلي، بل جاء زفرة حارقة ماتعة وهم يهذون بوجدهم في رحاب الحضرة و ساعة التجلي .. كانوا منفصلين عن الوعي وهم يبوحون بغير قصد، أما تصوف النص فهي محاول بوعي وإدراك لرسم صورة لحالة التجلي أو تمثلها من شعراء ذلك العصر علّهم يذوقون ما ذاقوا، ولكن البون شاسع، وفي كلٍ خير.

ففي قصيدة (الإشارة) لأحمد موسى يحاول أن يأخد منحى وأسلوب ابن الفارض البلاغي في استحضار صورة الحبيبة ومخاطبة الذات العليا بصورة الحبيبة والعشق، فهي عنده جوهر العشق وإن اختلفت وتعددت الأسماء، فهي ليلى ورباب وسلمى و....، وكل ذلك إشارة إلى روح الجمال الكبرى التى يعشقها ويهيم بها.

اختارأحمد موسى ثوبا راقيا لتلك الحالة المتصوفة الجميلة من اختيار الشكل الخليلي، ليحيط نصه ببعض من القداسة والجلال، وهو المدرك أن ذلك الشكل العمودي يتماس مع عبق الحضرة وجلال الماضي، مع اختيار رائع للقافية التي تنتهي بحرفي الألف والباء، ليشعرك أنه يقف على الأعتاب متوسلا ومتسولا شغوفا لحظة تجلى تسعد بها روحه. وكذلك

اختياره للبحر الشعري الواسع الجنبات (الكامل) ليحتوى بعض شطحاته وأمواج روحه ليحلق بأجنحة البوح في عالم الروح والتبتل، ويستخدمه وهو الماهر في عروض الشعر، فعرف كيف يختار القافية والبحر ليناسب تلك الحالة المتصوفة تصوف روحه .

يبدأ قصيدته بالسؤال الاستنكاري و كأنه يعيب على من لا يعرف السر ولا يحيط بكُنه الحب الحقيقي، فعنده هي (ليلى) رمز الجمال والعشق والصبا والوجد والحرمان والمتعة والشوق والتوق وسر التغريب والمعاناة .التي لم يصل إلى حقيقتها أحد، فهي الرمز لكل جمال :

أيحُبِّ ليلى يا خَلِي تَرتابُ ؟
وتقولُ ما قالتْ بهِ الأعْرابُ ؟!
قالوا غدَونا عاشِقينَ وأرجَفوا
وترَيَبوا في حُسنِها، واغتابوا
ماذا أقولُ إذا وصَفتُ جَمالَها
والرُّوحُ تَهفو واليَراعُ يَهاب

و لنقف هنا قليلا أمام لفظة (الأعراب)، تلك اللفظة الساحرة في الاختيار، فشاعرنا أراد أن يحيلك إلى بادية التجلى بصفائهاالصحراء، لأنها الملائمة لحالة التجلى والمناجاه و السبح بعيدا عن زحمة الواقع و آلة المدنية الحديثة التي تقتل الروح، أراد أن يحيلك إلى فلسفة الأعراب في استنكاره، لأنهم أشد جمودا

وجحودا مع التعامل مع تلك الذات بصوفية روحانية خالصة،أو لأنهم لم يصلوا ويسمو بعد إلى تلك المرتبة الإيمانية العليا، عندما يأخذك إلى تلك اللفظة القرآنية في الأية الكريمة (قالت الأعراب آمنا) فكأنه يعيب عليهم عدم معرفتهم للسر بسبب جمودهم وتعجلهم معرفة السر و إدراك مكنون الإيمان الحقيقي فهم لم يرتقوا بعد إلى كمال وتمام الإيمان كما ّذكرهم المولى تعالى في (قل لم تؤمنواولكن قولوا أسلمنا).ولنلاحظ الدقة اللغوية الملائمة لحالة الإدعاء عندهم في ألفاظ (تقول، قالوا، أرجفوا، ترببوا، اغتابوا) فكلها ألفاظ تؤكد حالة عدم الوصول و الإرتقاء منهم لسر الحضرة وعالم الروح بتجلياته السامية .

ثم بعد ذلك يرجع بروح المريد ونفس الدرويش المتصوف محاولا التحويم حول حومة الحضرة، فيتغني بالوصف الحسي لتلك المحبوبة العليا وكأنها جسدا وذاتا لا روحا ومعنى أكبر من أن تحده الأبعاد و الأقطار ! فهي عنده ذات حسن مترفة و مترفعة ذات سحر ودلال إلا أنه يخرجه من دائرة اللوم جملة (و الترفع طبعها) :

هي ذاتُ حُسنٍ والترفُّعُ طَبعُها
في سِحرِها تتحَيَّرُ الألبابُ
تتَوارثُ الأجيالُ عِشقَ صِفاتِها
ويُجِلُّها الأسلافُ والأعقابُ

تتهدج الأصوات عند ندائها ...

وبذكرها يتهجد الأواب

فهو الصادق في أنه قد تلبسته حالة المتصوف، ويكشف صدقه التصوفي أنه مازال في طور المريد لفظتا (ندائها، الأواب) فما حال الصوفي المحض إلا أنه يتوحد فيها فلا يناديها بل يناجيها ، و ليس الصوفي بأواب بل الحاضر معها لا يغيب عنها حتى يأوب ويرجع إليها،إنها الروح التى دوما ما تحل بالصوفي في الحل والترحال واليقظة والغفوة

وأحمد موسى شاعر رغم تصوفه وسريان روح التصوف بكيانه،إلا أنه يخشى اقتحام لجة الحضرة واستخدام لغة التصوف و شطحات روحهم فهو صاحب التربية الأصولية التى تحد من شطحاته الروحية و إن تملكته ، فهو يحبها كما قال الكتاب ، فصوفيته تنبع من خلال الكتاب وما جاء به، وعندهم همو هناك حب آخر يرتفعون به فوق كل حد مقدس فما هم بعشقهم طالبوا ثواب ولا يخشون من عقاب فحبهم خالص لذاته :

وبِحُبِّها جاءَ الكتابُ ، وعِشقُها

فرْضٌ إذا فعَلَ الكريمُ يُثابُ

(وعشقها فرض) إذن شاعرنا كشف عن أرضيته الثقافية هنا، الحب عنده(فرض وكأنه مفروض ويثاب عليه المرء ووصولية الحب ونفعيته واضحة في كلمة

(يثاب)، أما عندهم الحب فيض وغيث لا يناله إلا من وهب روحه وذاته رغبة وشوقا لا فرضا وجبرا من اجل ثواب أو جزاء، فهم يحبون ملء ذواتهم لأنهم وصلوا إلى مرحلة المكاشفة فعرفوا، فمن ذاق عرف .
وعند شاعرنا نجد تلك الذات وتلك الحضرة منزهة أن يكون لها مثيل في الحسن ولكن بعقولنا القاصرة نتلمس جمالها في تجسيد الجمال في أناس بهم بعض جمال، علنا ندرك ماهية الجمال الحقيقي لتلك الذات :

إنْ قيلَ مَن ليلى ومَن أخَواتُها
سَلمَى ولُبنى ، عَبلةٌ ورَبابُ
هُنّ المثالُ إذا فَهِمْتَ إشارتي
أما العِبارةُ "ما لها أترابُ"
مَهما تَعدَّدَ في قصيدي رَمزُها
ليلايَ واحدةٌ لها ألقابُ

(سلمى و لبنى، عبلة و رباب) يحيلك الشاعر هنا إلى قصص الحب العذري في التراث العربي الصافي المبرأ من كل دنس حتى تقترب من روح الجمال البكر و تتلمس بعض صفات الحب الحقيقي، فهو المتأثر بالتراث الغزلى العفيف، وليته تأثر بالتراث الصوفي الذي لا مثيل له في الحب الإلهي فهو نوع آخر غير ....
ويدرأ عن نفسه كل سهم عتب بقوله (فهمت إشارتي) وكأنه يدفع عن نفسه لوم عدم التحليق والتوحد

والإنصهار في ذات الحضرة بقوله أنه يرفق بعقل المتلقى، ويلتمس لنفسه العذر في عدم التصريح و الخوض في وصف الحقيقة التى يراها، ولكنه لو رأي لما التمس العذر وباح بما تجود به نفسه وفقط، دون مرعاة حالة غيره ، فإذا ذاب و اتصل ماكان يعنيه من أراد أن يصل أو لا يصل، فلن يصل إليه إلا كل روح مريد تشربت نفسه من نفس مشكاته وسكرت من نفس كأسه، فليس له ههنا عندنا من عذر .

ليلاي واحدة، نعم يا شاعر هي واحدة ما لها شبيه أو مثيل أو نموزج يقربها ولو بعض الشئ، ولكنه في تلك القصيدة نجده نمطي العشق والهوى، يدفع عن نفسه الشرك ، فهي متفردة في كل شئ عنده، ولكن عندهم همو : هي كل شئ في لا شئ، ولا شئ في كل شئ، فهي عندهم تحل في الكل، فهي الواحدة الجمع، والجمع المتوحد، ولكن كما قلنا يخشى سهام النقد والتجريح و يهاب سدنة المعبد واتهامهم له كما اتهم السابقون أسلافه بتهم الحلول أو الاتحاد، فعبر عن حاله على وجل وخشية كما أخبرنا في بداية قصيده :

مَهما تَعدَّدَ في قصيدي رَمزُها
ليلايَ واحدةٌ لها ألقابُ
حاشايَ أشركُ في هواها غَيرَها
فتحيطُني الأزلامُ والأنصابُ

وكأنه يسمع مقالتي من بعيد فيدافع عن عدم إنصهاره

وبوحه بمكنون ذاته بقوله:
وأصونُ قولي أنْ يُميطَ لثامَها
يخبرنا بأنه القادر على البوح و إماطة اللثام عن بعض جوهرها وسر حقيقتها، ولكن يخشى من جاهل أو مغتاب ، ومردود عليه : يا سيدي إن الصوفي لا يرى غير ذاته فيها ويراها في ذاته، ففي حضرتهم دوما يتبتلون ويفنون و يرون بغير تلك العيون التي لنا، فلهم عيون غير العيون (قلوب العاشقين لها عيون ** ترى ما لا يراه العاشقون)، فالجاهل والمغتاب لا وجود له عندهم، هم هناك وفقط، في كل حال يتغنون وبلا خوف من جاهل أو وجل .ولم يتركنا الشاعر قبل أن يخبرنا عن ذاته، بأنها تحج إلى حرم الجمال، وأنه قد دُعي فلبى ، ولم يخبرنا ماذا قدم من تبتلات وتوسلات وعن حالة وجده، وكيف هو في وجده وماذا سفك من ماء ودمع حتى يُدعى؟ ولم استحق أن يُدعى؟ وكيف أنها اجتبته ودعته إلى حضرتها؟ وكنا نأمل أن يخبرنا عن بعض وجده وحزنه والتياعه في سلم العروج والوصول، فكل الذين سبقوه قدموا وقد قتلوا على عتبتها متمنين لحظة أن يُدعوا إليها وأن ينالوا .
ولكننا في النهاية أمام نص جيد في تصوفه،جميل راق في حرفه و إن كان ينقصه ريح الصوفية العاصف، ولكنها طبيعة ذلك العصر.
فهنيئا له أن استطاع أن ينتزع بعض روحه من رحابة

الواقع الهادر مادية و ضوضاء، إلى أن يتصوف قليلا و أن يحل مريدا في ثوب قصيدته التى نعتبرها بداية خطوة على درب التصوف، وعساه أن يتوحد يوما ما، فيطربنا ويشفي غليل أرواحنا بمكابداته ومواجده وعروجه المنتظر، ونجد شاعرنا يمسك بخيطه الدرامي بإحكام بلاغي هو بارع فيه، فيبني النص بناء هندسيا متكاملا ما بين السؤال الاستنكاري في البداية، ثم تبيان جهل من ابتعدوا عن سر التصوف، ثم يعدد وصف محبوبته ضاربا نماذج لما يسوق، ثم يبين لنا لماذا لم يسهب في وصفها، وبعدها يجيب عن تساؤل المتلقي في عدم الإفصاح والإبانة، ثم يختتم قصيدته بأنه دوما يحج إلى حرم الجمال.

خيط درامي لبناء هندسي للقصيدة محكم، واستخدام اللغة في رشاقة ورقة، مستدعيا بعض الألفاظ الصوفية التى تخدم حالة التصوف في النص مثل (أرجفوا، تتهدج، يتهجد،يميط، لثامها، حرم)

أما اختيار عنوان النص فهو معبر جدا، لأننا ما نراها فعلا إلا إشارة إلى بعض ما يعتريه من حب التصوف وحب الحضرة وقد جاءت الصور البيانية والتصوير الرمزي فقير إلى حد ما، وذلك دليل صدق على أنه لم يصل إلى مرحلة المكابدة و المكاشفة الحقة، فكان أسلوبة تقريري (الأسلوب الخبري) يتناسب مع حالته المتصوفه وليس حال الصوفية ، فقلة الصور عنده

تدل دلالة واضحة على عدم اكتمال التجربة الصوفية الجامحة بفيوضاتها وتجلياتها عنده
ولكننا أمام نص أدبي جيد يبرز محاولة راقية وجيدة لحالة متصوفة خاصة، يعبر عن روح الاشتياق لحرم الجمال لشاعر روحه صافية،تحن وتشتاق، ولو تمكنت منه الحالة لصال وجال بلاغة وفيضا صوفيا، وذلك لما يمتلكه من أدوات الشعر مع عمق ثقافي واسع وحلاوة لفظية راقية.

الإشارة
أبِحُبِّ ليلى يا خَلِي تَرتابُ ؟
وتقولُ ما قالتْ بهِ الأعْرابُ ؟!
قالوا غدَونا عاشِقِينَ وأرجَفوا
وترَيَبوا في حُسنِها، واغتابوا
ماذا أقولُ إذا وصَفتُ جَمالَها
والرُّوحُ تَهفو واليَراعُ يَهابُ
هي ذاتُ حُسنٍ والترفُّعُ طَبعُها
في سِحرِها تتحَيَّرُ الألبابُ
تتَوارثُ الأجيالُ عِشقَ صِفاتِها
ويُجِلُّها الأسلافُ والأعقابُ
تتَهدَّجُ الأصواتُ عِندَ نِدائِها
وبذكرِها يتَهجَّدُ الأوّابُ
وبِحُبِّها جاءَ الكتابُ ، وعِشقُها

فرْضٌ إذا فعَلَ الكريمُ يُثابُ
إنْ قيلَ مَن ليلى ومَن أخَواتُها
سَلمَى ولُبنى ، عَبلةٌ ورَبابُ
هُنّ المثالُ إذا فَهِمْتَ إشارتي
أما العِبارةُ "ما لها أترابُ"
مَهما تَعدَّدَ في قصيدي رَمزُها
ليلايَ واحدةٌ لها ألقابُ
حاشايَ أشركُ في هواها غَيرَها
فتحيطُني الأزلامُ والأنصابُ
وأصونُ قولي أنْ يُميطَ لثامَها
مهما لحاني جاهلٌ مُغتابُ
رُوحي إلى حَرَمِ الجَمالِ عُروجُها
إفافهمْ معانيَ مَن دُعُوا فأجابوا

obeikan.com

سلم العروج (أمٌ) مُنزهة عن رؤى التقليد

ومثلث الحب (ربٌّ و أم و رسول)

من ديوانه (البدء بالتيه) لمحمد جاويش

نفحة صوفية خاصة من نفحات الشاعر المُريد (محمد جاويش) تأتينا عبر قصيدة (أمي) التي تبرزه مُريداٍ يدور في فلك حضرة خاصة مناجيا ومبتهلا في رحاب حضرته العلوية الدنيوية معا، فله حضرته الكبرى التي يتوق إليها، حضرة المولى – عز وجل - الروح والريحان التي تنبثق منها،حضرة شاعرنا الدنيوية، فلمحمد جاويش مدارج مختلفة عن بقية مدارج الصوفيين كما عهدناها في سجل التراث الصوفي، ولكنه المريد المتزن في تصوفه، الذي يأخد بالأسباب التى بين يديه من هبات ربانية كي يتصل بها بحضرته الكبرى، بما أملته عليه الحضرة الأولى (أمه)، فبتبتله في حضرة الصغرى وكعبته الأولى يصل إليه، فهي سر التكوين والنفحة الأولى من تلك الروح الأزلية السرمدية المباركة، إنها الماء والسفيا والمن والسلوى، مرجعنا معه إلى طفولته الأولى واللذة المادية التى ينتشي كل مولود من نبع الرضاعة، رافعا إياها فوق كل حب وكل عين إلا عين الحبيب الأول الذي قد وهبه إياها، يغني لها ويناجي وبالتغني لها يغني ويسبح

له، فهي قبس منه ونفحة علوية من نوره ورحمته.
يستعرض بنا شاعرنا في بحر قصيدة (أمي) فيضا من أمواج الحب ونسيم الأمومة، سابحا في نهر المحبة وفيض النور المتمثل في ذاك النهر الإلهي الماثل حقيقةً على الأرض في تلك الذات، مستعطفا لها ومناجياً إياها أن تجود بجرعة حب معنوية بعدما انقطعت عنه تلك اللذة الحسية المادية – لبن الرضاعة المن والسلوى – بلذة معنوية روحية ودعوة تكون المعين والزاد، فهو الطامع المحروم والعاشق الملهوف، لا يقنع من لذة الهوى المبرأ من كل عيب أو غرض:

هَـزَّتْ بِـجِذعِ الـحُبِّ .. فَـانـسَابَ الـهَوَى
وأنَـا أُنَـادِيـهَـا : بِـرَبِّـكِ .. زِيْـدِي
صُبِّي أكَاسِيْرَ الغَـرَامِ جَـمِيْـعَـهَـا
فَـالـنَّـبْـضُ نَـبْضُكِ وَ الوَرِيْدُ وَ رِيْـدِي.

فبعدما ذاق حلاوة الكأس الرباني ورحيقه المصفى يريد ذلك المريد المزيد والمزيد من شهد الهوى و إكسير الغرام ، فالجزع يحن إلى أصله، فما نبضه إلا بعضٌ من نبضها وقطرةٌ من نهرها،فكل ما يحمله من فيوضات الشعر وعبقه ما هو إلا بعض مما سكبت فيه من روحها، فهي رحمة الرحمن و إكسير الحياة بوريده ، ونور مقلتيه التى تسامت عن كل تشبيه

وتقليد في ناظريه :

يـا رَحْمَـةَ الهَادِي وَنَـفْحَـةَ رَبِّـنَـا
مِـنْ رُوحِـهِ فِـي خَـافِقَـيَّ وَجِـيْـدِي
يَا وَمْـضَةَ الـنُّـورِ الَّـتِـي فِي مُـقْـلَـتِـي
أنـتِ العَصِـيَّـةُ عَـنْ رُؤى الـتَّـقْـلِـيْـدِ

فالدرويشِ يعشق خمر الحضرة ولذتها في معنى الأم يضفّر شاعرنا تجربته الإنسانية بمعجمه التراثي المكتسب من حروف القرآن والسنة النورانية، فها هو مؤمن حق الإيمان بأن جنته تقبع تحت أقدام أمه، ولا زيغ،فهو الذي عشق الأقدام وما هي في ناظريه إلا كعبته البتول، وحضرته الأولى، وتلك الحضره هي سلم العروج إلى الحضرة العلوية الكبرى بروحها وريحانها، إنه المحب العاشق والعقل الواعي الذي يأخذ بالاسباب وبما يتوافق مع الفطرة السليمة و ثوابت الدين ، نعم إنها الحب الحقيقي الذي يقصده و إن تشعب الهوى وضلت خطاه، فهي بيت القصيد الذي يقصده وإن عَميت الرؤية يوما ما أو جنحت:

إذ ْ كَـانَـتِ الـجَـنَّـاتُ فِـي أقْـدَامِهَـا
فَلقَدْ حَظِيتُ فوَجْـهُـهَا مَـقصُودِي

مَا زالَ كَـعْـبُـكِ بُـغيَـتِـي ولأرتَـقِي
عَـيْـنَـاكِ يَـا أمَّـاهُ بَـيْـتُ قَـصِـيْـدِي

صوفي يحمل فوق يديه يوم العرض الأكبر حبا يشفع له فوق المسابح والصراط علّه يجتاز ويفوز ويرقى،

وهو الواثق أن حب أمه سببا وشفاعة أمام الحبيب محمدٍ - صل الله عليه وسلم – وتحت ظل العرش الكريم كي يجتبيه ويرضى عنه، فرضاها رضاء وقبول، فالأم عند محمد جاويش مفتاح الجنة وجواز المرور فوق الصراط إلى ساحة الخلد وحضرة المولى – سبحانه وتعالى – فقمة التوحيد عنده أمٌ توصله إلى التوحد في ذات الحبيب.

إني بلا عملٍ أشفعه إذا
مَـا زَاغَـتِ الأبْـصَـارُ يَـوْمَ شُـهُـودِي
ألـقَـى حَـبِـيْـبِـي فِـي الزِّحَـامِ بِحُـبِّـهَا
فَـعَلَـى الْـمَسَـابِحِ ذِكْـرُهَا تَـمْـجِـيْـدِي
أرْقَـى بِـنُـورِكِ فَـوْقَ سِـدْرَاتِ السَّـمَـا
فَـالـخُـلْدُ بُردكِ وَالـهَوى تَـوحِـيْـدِي

ونرى بين ثنايا القصيد توافقا وتوحدا روحيا ومنطقيا بين الفطرة الإنسانية والذات النورانية التي بين جنبيه، حب بروح، وروح بعقل، وعقل بمنطق دون تناقض، بل تعانق وتضافر الروح مع العقل والهوى في الوصول إلى الوحدة الإنسانية التى فطرها الله عليها.

وإذا نظرنا إلى أدوات محمد جاويش البلاغية نرى أنه قد قسم قصيده إلى شقين، الشق الأول شق المناجاة والتبتل، وقد اختار لتلك الحالة من وجد وشوق ولهفة

ووجد ما يناسبها من استخدام الأسلوب الإنشائي من النداء، الذي يتناسب مع روح الحضرة والمناجاة ونار الشوق (أناديها، هيا سربلي، يا رحمة، يا ومضة) وكذلك استخدام الأسلوب الطلبي المتمثل في فعل الأمر كما في (صبي، هيا سربلي، فحودي، جودي) ثم في الشق الثاني من القصيدة يستخدم الأسلوب الخبري ببراعة وعذوبة ليتناسب مع حالة التقرير واليقين، الذي هو سر الشفاعة وجواز المرور فوق الصراط، وتلك المعاني القرآنية والنبوية لابد معها من استخدام الأسلوب الخبري من تقرير و إقرار بلا أدنى ريب أو شك .

وفي تلك القصيدة يظهر ملمحين من شخصية محمد جاويش، فهو الإنسان المؤمن المسلّم بما جاء في الكتاب والسنة دون جنوح أو شطط، وهو المنطقي العاقل الذي يأخذ بالأسباب المادية كي يصل إلى مبتغاه، فهو يصل بما بين يديه لما هو مؤمن به في عالم الغيب، وهنا تظهر شخصيته المتزنة وتغلب عليه دراسته في مجال المحاسبة والأخذ بالأسباب، رُغم تربيته الدينية، لكنها تربية على حصير الكتاب وسبحة أبيه وإيمان العوام الفطري.

إن مثلث الحب عند محمد جاويش يتمثل في أركان ثلاثة (الله – الرسول – الأم)، ولا يضير محمد جاويش في قصيده هذا قلة الصور البلاغية، فما هو

هنا إلا في مقام المناجاة والخشوع فغلبت عليه روح التوسل والتبتل وعدم الشطوح والانطلاق بعيدا عن روح الموضوع فكرا وصورا، وإن كنا نرى أن كلمة (سدرات السما) جاءت نتيجة حالة الوجد والهُيام ولا تتناسب مع منطقية الاعتقاد وثوابت التراث، فالسدرة العلوية واحدة، ولكنه قلب محمد جاويش العاشق للأم المنزة عن رؤى التقليد.

شكراً محمد جاويش على ما عرج بنا في تلك العوالم الروحانية الصافية.

opeikan.com

أمي

هَزَّتْ بِجِذعِ الحُبِّ .. فَانسَابَ الهَوَى
وأنَا أُنَادِيهَا : بِرَبِّكِ .. زِيْدِي

صُبِّي أكَاسِيْرَ الغَرَامِ جَمِيْعَهَا
فَالنَّبْضُ نَبْضُكِ وَ الوَرِيْدُ وَرِيْدِي

وَبِفَاتِنَاتِ الدُّرِ.. هَيَّا سَرْبِلِي
كُلَّ القَصَائِدِ .. إنَّ عِيْدَكِ عِيْدِي

يا رَحْمَةَ الهَادِي وَنَفْحَةَ رَبِّنَا
مِنْ رُوحِهِ فِي خَافِقَيَّ وَجِيْدِي

يَا وَمْضَةَ النُّورِ الَّتِي فِي مُقْلَتِي
أنتِ العَصِيَّةُ عَنْ رُؤى التَّقْلِيْدِ
المَنُّ وَالسَّلْوَى أتَونِي مَرَّةً
ثُمَّ السَّمَوَاتُ احْتَجَبْنَ .. فَجُودِي

جُـودِي ولَـو عِنـْدَ الإلَـهِ بِدَعَـوَةٍ
فَـأنَـا الـمُـرِيـْدُ وَذَاكَ نَـبْـضُ مُـرِيْدِي

إذ ْ كَـانَـتِ الـجَـنَّـاتُ فِـي أقْـدَامِهَـا
فَلقَدْ حَـظِـيتُ فَـوَجْـهُـهَا مَـقصُودِي

مَا زالَ كَـعْـبُـكِ بُـغـيَـتِـي ولأرتَـقِي
عَـيْـنَـاكِ يَـا أمَّـاهُ بَـيْـتُ قَـصِـيْـدِي

إنِّـي بِـلا عَـمَـلٍ أُشَـفِّـعُـهُ إذا
مَـازَاغَـتِ الأبْـصَـارُ يَـوْمَ شُـهُـودِي

ألـقَـى حَـبِـيْـبِـي فِـي الزِّحَـامِ بِحُـبِّـهَا
فَـعَـلَـى الـمَسَـابِحِ ذِكْـرُهَا تَـمْـجِـيْـدِي

أرْقَـى بِـنُـورِكِ فَـوْقَ سِـدْرَاتِ السَّـمَـا
فَـالـخُـلدُ بِـرُّكِ وَالـهَوى تَـوحِـيْـدِي

لغة المتاب عند فتوح قهوة

والعشق في حضرة القصيدة

(لغة أخرى) ودكتور/ فتوح قهوة

لهم دوما لغة أخرى في حضرة الوجد والغياب، إنها (لغة المتاب) كما يسميها دكتورفتوح قهوة، فشعراء الوجد لغتهم دوما رموز لا يفقهها إلا الغائبون في شتاء دنيا فارقوها قلباً وروحاً، وهم الحاضرون بين ظلال لغة كلها وجد وحب وتمتمة بدمع الشوق لا العتاب ، فهذا حالُ من أحوال من يفنون في حضرة القصيدة رغم حضورهم بعيدا جدا عن عوالمنا المادية فتأتي لغتهم كما حضرتهم سرا بينهم وبينها فقط، لا يطلع عليها إلا هم، وهي فقط، هكذا يغني فتوح قهوة لذاته الصوفيه التي بين جنبيه متوحدا معها دمعا وحبا وحزنا و وجدا و اشتهاء، ففي تلك القصيدة التى تعج برموز صوفيتها كما يعيشها هو، تجده متفردا في صنع لغة صوفية خاصة به، لا مستعيرا لغة الصوفية الذين قد سبقوا على شتى عصورهم، ولكنه يصنع لغة خاصة بصوفيته هو وتتناسب مع شخصيته و ثقافته هو، لا مقلدا ولا معارضا، بل مبتكرا لغة تتناسب وتلك الذات التى يحملها بين جنبيه متغربا

في أرض هي عنده (أرض اليباب) و إن كانت اللفظة قد خانته ولكن ندرك وبجلاء حسا صادقا، أنها أرض الأحزان والاغتراب، فظاهر اللفظ (اليباب) الخراب ، ولا يمكن أن تؤول على ذلك، اغتراب وشتاء وجدب.

(لغة أخرى) هكذا يسميها شاعرنا ونراها كذلك' فهي لغة حاله المتفرد بها في وجده واغترابه وتسبيحه شوقا وعشقا، لغة يستدفئ بها من برد دنياه وشتاء مشاعر البشر المجحفة، وهنا علينا أن ندرك أن تلك الحبيبة التي يناجيها إنما هي الذات الإنسانية التي يهيم بها ويتوحد معها، وبينهما صراع وصراع، فيناجيها بلغة المحب العاشق وأحيانا بلغة المعاتب متبتلا إليها أن تقرأه وتتمعن حقيقته، وكيف ذا؟ وهي الأحلام الغريبة الجريحة، فما يكنه داخل جنباته أقانيم من هوى ووجد، ويستحثها على عدم الوقوف على هامش الحياة بسطحيتها الفانية وأن تتوغل ذاته في ماهيتها وأن تبحر بعيدا بما يليق بها وبه:

قلتُ : اقرئي ..
ما قد تيسّـر .. من رؤىً
فى سِفْرِ أحلامي
أقانيـم الغيـــابْ

وتوغـّلي ..

ومن اللحظة الأولى لبنية القصيدة التي تسير كأغلب شعرائنا الذين يجدون متعة فن العزف على بحر الكامل لما به من براح لإستيعاب زفراتهم و وجدانهم، نلاحظ التكثيف اللغوى والدلالات الواسعة لكل لفظة وتعدد التأويلات بشتى الأبعاد ليجد كل قارئ بغيته وما يتوافق وروحه ومدى براح خياله، فنجد جملة (ما قد تيسر .. من رؤى) ليجعلنا نفتح قوسا كبيرا منذ البداية لتلك الرؤى البعيدة، وأن ما يقوله بعض من رؤاه، ثم تأتيك جملة (أقانيم الغياب) لتأخذك بعيدا جدا عن غيابه، بل غيابك أنت أيها المتلقى الكريم وما تعانيه من غياب الروح في دنياك، فتستشعر الغياب ولو في جانب من أبعاد نفسك، فتجد ضالتك ههنا بين حروف قصيده.

يستحث فتوح قهوة نفسه أن تصحبه وتبحر معه إلى منافي الحلم الذي قد توارى بين جنبات عالمنا الذي نحياه، و أن تكون قمرا تعينه و تنير له الدرب، وأن تقصد روحه معه تلك العوالم الجميلة من هاتيك الأحلام المنفية بين ضلوع روحه، فهو العاشق الخائف الذي يخشى أن يتوه بين جنبات دنياه :

وتوغـّلي ..

قمرًا ....

يُيمّم وجهَهُ ..
شَطْر المنافي ..
فى ظلال مخاوفي ...
لمّا تُعمّدني .. الغيومُ
بشارةً
ومعارجًا ..
حَدّ السكينةِ ..
حين أوّلني السرابْ
لمّا تباركني الرياحُ ..
حكايةً ...
بين الصّراطِ...
وبين ذاكرةِ الكلام.

نقف هنا عند التكثيف اللغوي الذي يعتمد عليه الشاعر، وكأن اللغة تضيق مهما أوتيت من بلاغة أن تعبر أو قد تحمل بعض مما تعج به روحه من معان ومعان فوق لغة تلك الأجساد، فنرى مثلا ألفاظ (بشارة - معارجا - أولني السراب - حكاية - الصراط - ذاكرة الكلام)

التكثيف هنا ماتعا وعميقا ويفتح الباب إلى القراءة

obeikan.com

المستفيضة لما تفوح به تلك الألفاظ من معان متوغلة بين الحروف، فكل لفظ عنده يحتمل من التأويلات الكثير والكثير بما يتماشي مع القارئ حسب وجده وثقافته، فمثلا أي بشارة يقصد، و أي معارج تلك التي يرمى إليها،وما هي حد السكينة المتناهية التي ترومها النفس البشرية، وكل إنسان يرى سكينته عبر مكونه الثقافي و العقائدي،وما هي تأويلات السراب وأبعاد الهزيمة واليأس،وكيف تباركه الرياح، أهى الثورة على الموروث والمعتاد والرغبة في الحرية المطقلة للروح المترامية الأبعاد؟ هناك الكثير والكثير لما قد يتراءى من وراء تلك اللغة العميقة التى تفتح الباب على احتمال كل الزوايا بغير انتقاص من وجد الشغف والحب الذي يهواه ، ومع تلك اللغة الوجدية العميقة، تتماشي معها الصورة الشعرية التي لا تقل عمقا و حلاوة عن تلك الحالة الماتعة ' فإذا كانت لغة فتوح قهوة متمايزة، فإن التصوير البلاغي أكثر تميزا وخصوبة، فله صوره الخاصة الغير دارجة ومستهكلة (سفر أحلامي) صورة تعطيك قداسة الحلم المشروع،(ظلال مخاوفي) تلك الصورة التي تحمل المفارقة، فالمخاوف نار يصطلي بها صاحبها ومرعبة وطاردة للراحة النفسية، ولكن هنا تجدها الشجرة الظليلة، قمة السخرية و الاستهجان من الشاعر، وهي التي توحي بالهزيمة والإستسلام والرضا بالعيش

مقهورا بين ظلال الخوف محاولا التعايش مع واقعية الهزيمة المفروضة جبرا لا اختياراً . (لما تعمدني ... الغيوم) و (لما تباركني الرياح)، صورة بها من العمق والخصوبة ما ينبيك انك أمام حالة خاصة ولغة شعرية تؤججها الصورة الشعرية ثراء و رقيا .

وخُطـوتي ..

محضُ اغتــرابْ

قلتُ : اقرئيــني ...

آيــةً ...

ما بين رفــرفة الأفــولِ..

وبين أوْرَادِ الإيــابْ

وتوضـّــئي ...

فجــرًا .. يُعانق صَجْــوتي ..

فى سِدرة الحُلم .. ادّكــارًا ..

حين تمطــرني .. الغيــوبُ ..

مســافةً ....

للبَــوْح ....

يقطعــها اليبَــابْ.

(خطوتي محض اغتراب)، وهنا نقف أمام الجملة

obeikan.com

المفتاح للنص (الاغتراب)، فكل خطاه غريبة حزينة مهزومة، يبحث عن مرساه هناك، بين الغيوم و بين معارج الاصطفاء مواصلا التوسل والتبتل والاستعطاف من تلك الذات التي بين جنبيه أن تدرك معنى الحقيقة وأن ههنا محض اغتراب وأن تقف على حقيقتها كي تحل هناك، يريد أن تتوضأ بأريج القداسة الروحانية الشفافة في حومة الحياة الحقيقة وحضرتها، حرية وفجرا و انطلاقا في جنته التي يرنو إليها مشتاقا في عالم الغيب الذي يعيشه واقعا لاغيبا وسرابا، عاشق يرى عالم الغيب حقيقة بعيني روحه البريئة الطامحة إلى البراح المطلق، عاشقا للبوح الذي لا يصده عنه أي حجاب.

إن اللغة الشفيفة والصورة الشعرية تتماهى مع حلم روحه، وتحملك إلى عوالمه الخاصة من ضياء الحلم الذي تشتهيه نفسه وتتمناه، فترى صورا يعبقها ندى القداسة والسحر مثل:

(رفرفة الأفول - أوراد الغياب - توضئي فجرا - سدرة الحلم - تمطرني الغيوب - تمخضي حلما - مسافة للبوح).

يرسم فتوح قهوة هنا لوحة عميقة جدا متعددة الأبعاد بطريقة مبهرة، صورة ولغة، وكأنك أمام لوحة (الجيوكاندا) تستطيع أن ترى لها أبعادا من كل زاوية

واتجاه.

ومن مفردات النص الجيد أنه يستطيع أن يضعك أمام تأويلات ورؤى مختلفة متعددة الأبعاد و الدلالات، وهذا واضح بجلاء صدق ووجدان غير متصنع او محترف النسج، بل تأتيك الصور واللغة عفوية غضة طرية نابعة من صدق تتماشى مع صدق وجدانه وما يحمل من أحلام واغتراب.

ثم يأتيك الثلث الأخير من القصيدة ثورة وأمنية ورجاء:

وتمخّـضي ..

حُلمي ...

تـراتيـلاً ..

تخبئـــني على شَفَـة ِالقصيـدةِ ..

كانتظـار ٍ...

نـام فى حضـن العـذابْ

حتى إذا ...

آنستُ نـارًا ...

- والشّتـاتُ شـريعتـي -

فاستـغفـــري ...

للصّبــر ..

حين يلفّنــي صمتــي ..

تنــاهيــدًا ..

تلقّنــنــي ...

على لغــة المتــابْ.

(وتمخضي حلمي)، ترى كم فاض التبتل والأسى وتناهي التوسل والرجاء، تتكشف تلك الذات حقيقتها، وتتماهي مع صدق روح العاشق للفضاء والحرية رغبة في عالم الخلود لا الفناء .

لغــة المتــاب ....إنه العاشق للترتيل والبوح شعرا وغناء، فهو المصلوب على جسد الحلم يتلظى بصهد حلمه في انتظار العروج إلى عالمه الذي ينشده ويهواه،عالم الغيب بقدسيته المقدسة، يستدفئ فيه من برد البعد والشتات، فقد صار شتاته في دنياه وتغريبه قدرا وسجنا يود منه فكاكا، التحام الروح بالروح كى تكتمل عنده معنى الذات الحقة دون صراع مع ملذات فانية، وكأن ذاته تعاتبه على صمته وحزنه العميق، فيلتمس منها العذر، فهو الصبور صمتا على ....، غير قادرعلى البوح بما يريد ولا يعرف لغة تعبر عما يكابد ويعاني، متمنيا أن لو يتوافقا عنده يوما ما الروح والنفس، وأن تتكشف أمامه تلك العوالم المؤمن بها حد

الإيمان، وحتى يأتيه يومه هذا، فهو الصائم عن البوح، ولا يملك غير التناهيد الحزينة أسى ورجاء.

إذن هي قصيدة الصراع ما بين الذات والذات، أو بالأحرى بين تلك النفس البشرية الردية وبين تلك الروح الملائكية في لغة شفيفة تتناسب وجلال الحلم وطهارته، مع صورة من نسيج الوجد الصادق، فقد جاءت لغة القصيدة مبتكرة التناول يغزل بها شاعرنا ثوبا شعريا راقيا، ويزينها بصور تفتح لك أبعادا من رؤى فلسفية مع متعة خيال حلو.

وقد حمل لنا الخيط الدرامي عنده ذلك الصراع بينه وبين نفسه، فجاء متوافقا جدا بحبكة متقنة رقة وثورة وتبتلا صعودا وهبوطا يتماشى والصراع الداخلي، فتجد في الخيط الدرامي كافة مدارج النفس المتصارعة مع تلك الروح يخدم الفكرة بجلاء.

نعم فتوح قهوة، إنها لغة أخرى، وصور أُخر تعبر بجلاء عما تكنه نفس شفيفة وروح صافية حد الصفاء، مع قصيدة ماتعة وعميقة جدا بها من الحلاوة والرقي الكثير والكثير، فشكرا لروحك .

لـغــةٌ أخـرى

قلتُ : اقرئي ..
ما قد تيسّــر .. من رؤىً
فى سِفْرِ أحلامي
أقانيــم الغيــابْ
وتوغـّلي ..
قمرًا ....

يُـيمـّم وجهَـهُ ..
شَطـْر المنافي ..
فى ظلال مخاوفـي ...
لمـّـا تُعمـّـدني .. الغيـومُ
بشــارةً
ومعـارجـًا ..
حَـدّ السكيـنةِ ..
حين أوّلنــي الســرابْ
لمـّـا تباركني الريــاحُ ..
حكايــةً ...

obeikan.com

بين الصّراطِ...
وبين ذاكـرةِ الكـلامِ ...
وخُطـوتي ..
محضُ اغتـرابْ
قلتُ : اقرئيـني ...
آيــةً ...
ما بين رفـرفة الأفـولِ..
وبين أوْرَادِ الإيـابْ
وتوضـّـئي ...
فجـرًا .. يُعانق صَحْـوتي ..
فى سِدرة الحُلم .. ادّكـارًا ..
حين تمطـرني .. الغيـوبُ ..
مسـافةً ....
للبـَوْحِ
يقطعـها اليبَـابْ
وتمخـّضي ..
حُلمي ...
تـراتيـلاً ..

obeikan.com

تخبئـــني على شَفَــةِ القصيــدةِ .
كانتظــارٍ...
نــام فى حضـن العــذابْ
حتى إذا ...
آنستُ نــارًا ...
- والشّتــاتُ شـريعتـي -
فاستـغفـــري ...
للصّبــر ..
حين يلفّنــي صمتــي ..
تتـــاهيــدًا ..
تلقّنـــي ...

obeikan.com

زينب أبو سنة

بين صهيل الصوفية وخرير التصوف

قراءة في ديوان (حقيقة الأسماء)

أنا الظمآن و النشوان .. والمشتاق و المحتاجْ

و حين دنوت تاه القلب .. في ملكوتك الوهاج.

إن التجربة الصوفية لا تنفصل عن التجربة الشعرية، فالتجربة الشعرية والصوفية تنبعان من منبع واحد، وتلتقيان عند نفس الغاية، وهي العودة بالكون إلى صفاته وانسجام المبدع معه بعد أن يخوض غمار التجربة، فالتجربة الشعرية والصوفية كلاهما تحاول الإمساك بالحقيقة

والوصول إلى جوهر الأشياء بغض النظر عن ظواهرها، فالحَدْث عند المبدع يُحيل الوثبات الوجدانية إلى أحوال الكشف الذي هو علم الغيب وعلم ظهور المعاني التى لا تقوم بنفسها، ثم المقامات التي ترتقي فيها الذات إلى أن تصل، فإذا وصلت اتصلت، وإذا اتصلت انقطعت.

ونحن هنا في ديوان حقيقة الأسماء للشاعرة زينب أبوسنة، أمام تجربة متصوفة في هذا العصر المائج

بأحداث تطحن الذات بين شقي رحى، لا يستطيع إنسان هذا العصر أن يبرأ من تلك الآلة الغبية التى لا ترحم ولا ترق، وفي معترك هذا الخضم المتسارع بأمواجه يظهر ذلك الصوت الشعري المتغنى بأحوال التصوف وخلجاته ومواجده. والجميل في ذلك أن ذلك الصوت الشعري المتصوف صوت أنثوى، أنثى متصوفة في خضم هذا العصر بكل ما فيه، مع أن التجربة الصوفية الأنثوية غير متعارف عليها عبر التراث العربي إلا نادرا، وفي محاولات قليلة جدا، كما عند (رابعةالعدوية). وقبل أن نُبحر في أحوال (حقيقة الأسماء) سبحاً ورؤية، لابد أن نضع نصب أعيننا منذ البداية تلك الحقيقة، ألا وهي أن عالم التصوف وأحواله وفيوضه ومعارجه ومدارجه لابد له من مناخ ملائم كي يُخرج تلك الخلجات الصوفية إلى عالم الظهور، ولا يمكن بأية حال من الأحوال عقد مقارنة بين تلك التجربة المتصوفة وبين أقطاب الصوفية من أمثال الحلاج وابن عربي والسهرودي وابن الفارض والنفري وغيرهم، فما هذا المناخ بكل أبعاده الذي نشأوا وتربوا فيه وما المحيط الثقافي والديني والحضاري بهذا المحيط الذي ولدت فيه تجربة حقيقة الأسماء للمبدعة زينب أبو سنة، ومن يعقد مقارنة فقد أتعب نفسه وأتبعها الهوى، وابتعد عن منهج النقد العلمي الصحيح، ولكن لنأخذ تلك التجربة

بعين الاعتبار والتمايز، ذلك لسببين أولهما: أنها تجربة صوفية لذات أنثوية تقتحم مجالا لم يقتحمه غيرها من بني جنسها إلا ما ندر، وثانيهما: طبيعة العصر الذي تحيا بين جنباته، وهو عصر يقتل روح التأمل والتصوف بما فيه من متناقضات غريبة متسارعة.

قميصي قُد من قبلٍ .. تجاه شواطئ المعشوق

على أعتاب مولاي .. خلعت الهيكل المزهوق

و إذا أمعنا النظر - ولابد - في سيرة مبدعتنا، نجدها تستحق الثناء على تجربتها، وأنها امرأة غير ..، ذلك إذا عرفتْ المحيط الذي تحيا فيه من صخب سياسي واجتماعي وحضاري وثقافي، مع التنقل بين عواصم حضارية تقتل روح التأمل و التمعن في حقيقة الأشياء، وكذلك طبيعة دراستها في علم الكيمياء، وانخراطها في محيط السياسة وممارسة التجارة، إلى جانب أمومتها التي تفرض عليها الكثير، مما يبعدها عن روح التصوف وخلجاته، لكنها الروح الشاعرة الضاربة في أعماق الذات، والتي تأبى إلا أن تخوض تلك التجربة المتصوفة لتنجو بنفسها وروحها من براثن ذلك العالم، رافضة أن تموت جسدا وروحا في برزخ الحضارة اللعين، متسلحة بتلك الفيوضات الروحية بداخل ذاتها، وبمدى ثقافتها الواسعة في علم

الجمال، وإبحارها في خضم التراث العربي بكل ما يحمل من إبداع، وبشاعرية راقية، متكئة على أدوات شعرية وبلاغية تمتلكها بسيولة عذبة ومهارة قلما تتوفر لمبدعين متخصصين.

إنها زينب أبو سنة، تلك المرأة الحضارية العصرية التي بعد رحلة حياة صاخبة تصل إلى ما قد وصل إليه السابقون، حقيقة الروح والذات، وأن هناك لذة غير، وعالم غير، وحب أنقى وأصفى من كل الحب.

عند قراءة الديوان للمرة الأولى يجذبك ذلك الأسلوب السلس ببساطته ورقة ألفاظه وعذوبة كلماته، فرُغم أنه تجربة متصوفة جميلة، إلا أنك لا تجد به أية ألفاظ موحشة أوغامضة والتي قد تطالعك دوما عند الصوفية عبر التراث، لكنها تستخدم لغة تلائم أنوثتها وطبيعة عصرها، دون الجنوح أو الابتذال، ففي الديوان تجد فصاحة اللغة وحسن الكلمة وحلاوة المنطق، كذلك لا تجد صعوبة في فهم خيوط الصورة الشعرية رغم عمقها، فبساطة اللغة وسهولة الصورة الإبداعية تعبر عن شيئين: طبيعة المرأة وصدق التجربة المتصوفة، مع حنكة الشخصية، فالإنسان العادي والمثقف والمتبحر، كلٌ يجد بغيته من سهولة وعمق.

وعند التمعن في ديوان (حقيقة الأسماء) ترى أنه ليس

كباقي الدواوين، متعدد القصائد، بل هو عبارة عن أحوال ومواجد نفسٍ ملتاعة للوصول، وقلب مفعم بفيوض الحب، وشريان مترع بمواجدَ لا يستطيع البدن أن يتحملها، فجاء الديوان قصيدة واحدة متعدد المقاطع والقوافي. فعند زينب أبو سنة مهارة جميلة استخدمتها بحرفية إبداعية راقية، ألا وهي تعدد القوافي، واستخدام قافية خاصة لكل مقطع تعبر بها عن فحواه، فتستخدم القافية بما يتلاءم و حالة الوجد التي بالمقطع، وقلما تجد قافية في الديوان جاءت اعتباطا.

وعند الغوص في خضم الديوان و أحواله ورصد مواجده وفيوضه، تجد أن تلك الذات المتصوفة في هذا الديوان، قد مرت بسبعة مدارج، تعبر بهم عن رحلتها المتصوفة عبر الحياة، سنُفصلهم فيما بعد، ولكن هناك ميزة قد يراها البعض عيباً وتناقضاً دراميا للديوان، ألا وهو عدم اتباع الأحوال والمدارج بمنطقية متدرجة ومُرتبة عبر رحلتها، بمعنى أنك قد تجد مقطعا يعبر عن حالة الوصول والانصهار، ثم يأتي بعده مقطع يعبر عن حالة الاغتراب أو الغمة والعتمة، لكن السر في هذا ليس عدم قدرتها على الترتيب بما يتلاءم والتجربة الصوفية في سلم الصعود والعروج الصوفي، بل هذا لهو دليل صدق على ما تعانيه تلك الذات المتصوفة من أحوال، وأنها أرادت أن تضع القارئ أمام ما مرت به من مدارج بدون ترتيب أو

إمعان عقلي محترف، بل وضعت ما جادت به روحها دون تدخل منطقي عقلي منها، وإنها لقادرة على الترتيب المنطقى بحرفية، ولكنها الذات المتصوفة التى تأبي إلا الصدق مع النفس ومع القارئ.

سُلم الصعود والأحوال عند زينب أبو سنة يتماهى مع كل مراحل التصوف عبر المدى، الجميع يمر بتلك المحطات، من اغتراب وتخبط بين جوانب الحياة وعمى الرؤية، ثم مرحلة التبتل والحنين إلى الراحة والهدوء، تتبعها مرحلة البحث عن معالم الطريق، يعقبها مرحلة تكشف الرؤية والعروج، تليها مرحلة الكشف والوصل و الذوبان في لُجة النور، وأخيراً مرحلة التسبيح والتغني والمناجاة.

ولا نرى كما قلنا تتابع رياضي للمراحل يسير تباعا في الديوان، ولكن تراها متناثرة عبر تيار البوح في خضم الديوان.

مرحلة الاغتراب حيث تقول فيها واصفة ما تعانيه من آلام وشتات:

على أهداب نافذتي .. تعثر ملتقى الأحباب

أفتش في مخيلتي .. وفي تغريبة الأبواب

عن الزمن الذي ولّى .. و أبكي في جوارعتاب.

وهنا تتجلى محطة الغربة والعمى البصري في ذلك الواقع عن رؤية الأحباب، باحثة عن جوهر اللقيا، باكية ومتباكية على الزمن الذي ولى ببراءته وفطرته، فمن ملح الجراح والتغريب والتشتت وحر المعاناة تولد مرة أخرى تقول:

أنا المهموم بالأوجاع .. والمقهور بالماضي

فكم أحتاج من زمن .. لأعبر جسر أنقاضي

على سيفٍ من الإقرار .. بت الخصم والقاضي.

صراع ونزف داخلي من روح مهدمة على جسر الحياة تجلِد ذاتها معترفة بالتقصير والذنب، فهي المقتولة غربة وشتات، تبوح بدمع التوبة في لحظة مخاض وخلاص تقول:

أنا المفقود في الغربات .. والموجود في الغائب

أنا المشغول بالأنات .. بوح الدمع للتائب

و أعظم غربة في العمر .. غربة قلبي الذائب

ثم تعترف بالبعد عنه وقد أغرقتها الدنيا وجرفتها بعيدا عن جوهر الحب الصافي، مُجافية حقيقة نفسها التي تحن للحظة رضا تقول:

وكم أهرقت أعواما .. بعيدا عن سماء رؤاه

و لم أفطن لأنس الحب، دفء الشوق، وا أسفاه

وكنت مغاضبا نفسي .. فألقاني بشط رضاه.

ثم نراها مذبوحة على رصيف الدنيا سائرة في اتجاه غير ما تهوى، مُشتتة الخطى والجَنان تقول:

وآه كم خطوت أنا .. بعيدا عن سماء رؤاك

لقد ذبحتني الدنيا .. فجئتك في اتجاه خطاك

أنا بشتاتي العتم .. الذي جمعتهُ بسناك

وتنتقل من تلك المرحلة إلى الشكوى والتبتل، مناجية إياه في حسرة وندم، زارفة دماء الشوق والتوق علّه يجتبيها و ينير لها الدرب .. تناجي:

يفر الدمع بي ندما .. وها أنا أقف بالباب

و أُنكر تهمتي .. ذنبي، فأنت مُسبب الأسباب

لقد أبرأتني مني .. فجاء رضاك بعد غياب

ثم تناجيه متوسلة به إليه، مُقِرة ومعترفة بذنبها، عساه يأخذها منها إليه لتذوق حلاوة الذوبان فيه تقول:

إنائي مثقل بالذنب .. من منا بغير ذنوب؟!

فخذني من هوى نفسي .. أما أنذرتني لأتوب؟!

و أنت أخذتني مني .. فذاق القلب كيف يذوب

بغير هواك يا مددي .. بعيني ما كل بريق

بغير هواك أنت معي .. فلا مجد ولا تشريق

بغير هواك لا معنى .. لتنزيلٍ و لا تصديق.

فهو سر الحب و جوهر الأديان قاطبة، فترجوه و تقول:

أقمني عاري الأشواق .. يوم الدين و الساعة

أتيت إليك معتذرا .. شددت عزائم الطاعة

و أسأل عن غدي الآتي .. أما سأفوز بشفاعة

فيا لوعة المجذوب يبحث عن طريق النور ودرب الشفاعة، كي يصل متضرعة في خوف ووجل قائلة:

أبث الحمد أدعيةً .. يُدثرني شفيف رضاه

خُلقنا من تراب الأرض .. من روحٍ ومن أمواه

توهج هيكلي يعلو .. ثريا تحت ظل مداه

و أسألك بدمع القلب .. كيف ملأتني أشواق؟!

لقد آمنت أن الحب .. يجعل ميتا مشتاق!

وباسم الحب يا ربٌّ .. سأدخل جنة العشاق.

نعم باسم الحب تناجي وباسم الحب صار الميت مشتاقا في شريعة أهل الحب، مقتولا على الأعتاب، وقد جاوزوا بعشقهم كل الحواجز والحدود:

أنا مفتونة عشقا .. وعشقي جاوز الأعماق

فيا يقطينة الإبراء .. من يُشفي بغير عِناق؟!

ويا كأس الطِلى دري .. ملذات المحب دهاق.

ثم تناجيه بلغة الإطراء التي تتناسب وطبيعة الأنثى المتصوفة المنكسرة تقول:

هناك في أعالي الحب .. هل قلبٌ سواك يضم؟!

وجئتك طاعنا في الشوق .. مِن أعماق ذاك اليم

أُجدد فيك أشواقي .. أُطهر فيك هذا الدم.

يا لبراعة وسحر وخبث أنثانا المتصوفة التى تعرف كيف تناجي بعاطفة العاشقة المحبة، التي تتضرع وتتبتل بضعف أنوثتها وجهل طبيعتها البشرية كي تستدر ذاك الحب تقول:

أما نعَّمتني في الظل .. ثم منحتني الإمداد؟!

دليلي جهل معرفتي .. لنفخ الروح في الأجساد.

هناك سـُئلت: من تهوى؟!

أجبت: السيد الأبعاد.

ثم تَغرق في التبتل والخشوع والخضوع والمناجاة، علّه يكشف لها الطريق إليه فتناجي:

أما أوجدتني في الخلق .. ثم منحتني التفسير؟!

أما سويت لي نفسا .. أما ألهمتها التغيير؟!

أما أغرقتني عشقا .. بعشقك صرت ثمّ أسير؟!

وتبدأ بعد تلك المرحلة من التبتل والخشوع في البحث عبر جنبات الكون والروح والنفس عن الطريق إليه، متخذةً نبض قلبها وصهد نار الشوق والحب دليلا في رحلة البحث عن معالم الطريق الذي قد يوصلها إليه، تقول:

بوادٍ غير ذي زرعٍ .. أفتش عن لقاء حبيب

أُجاهد للوصول إليه .. فاجعل لي الوصول قريب

أدرت الظهر للدنيا .. بها بت كألف غريب.

إنها الغريبة التائهة في ربوع الكون، شريدة العشق والهوى، مناجية عبر ستائر الليل وهدأة الفجر،هائمة عبر نسيم المناجاة الصافي، تفتش عنه عبر الندى وقبلات الفجر تقول:

يعود الفجر مُنتشيا .. يلملم كفهُ النجمات

ويحتضن الندى ثغرا .. تبلــل شوقه القبلات

أفتش عنك في ولهٍ .. يردد قلبي الكلمات.

ظمآن على ظمئ يهيم في الملكوت عبر شواطئ المعنى للمأوى ململماً شتات روحه:

أنا الظمآن و النشوان .. و المشتاق و المحتاجْ

و حين دنوت تاه القلب .. في ملكوتك الوهاج

obeikan.com

وعبر شواطئ المعنى .. عرفت طهارة الأمواج

هناك حيث يجري العمر .. تلهث فيه أيامي

أنا المشتاق للمأوى .. لأحضن فيك أحلامي

محوت الشك بيقيني .. أُحاذر رجع أوهامي.

وعندما تعرف طهارة الأمواج، وتصل إلى مرحلة اليقين، تخرج من برزخ البدن إلى حيث هناك، فما بعد جهد السعي الصادق إلا الخروج والكشف تقول:

يليق بي الخروج الآن .. من جسدي إلى الإمداد

أنا تلقاء بادئة حلولي .. نشوة العُبَّاد

و حين أضأتني حبا .. مشيت بموكب الزهاد.

ولتبدأ رحلة العُباد الزُهاد ليروا طريق النور، سبيل النجاة والوصول إليه، فتقف على عتبات الحب تتماهى في سنا النور وفيض المحبة فتقول في بداية رحلة الكشف:

على عتبات هذا الحب .. لاح سناك يطويني

دموعي فيض إحساسي .. تسبح في شراييني

فكيف تغيب عن أحداقي؟ .. الأشواق تكويني

و جاء الصوت يهتف بي .. فأدبرت على وجل

قفي، لا تجزعي مني .. ومَن قد فر من أجل؟!

إليك محبة مني .. سأنبئك على عَجل.

يا لفرحة الكشف ويا لدمعة الأشواق! إنه حال المريد عندما يظفر بلمحة نور تهديه وتدله على طريق المحبوب، ترشده إلى كعبة الزهاد، وما حالها إلا كحالِ موسى عندما تكشَّف له نور الجلالة فخرَّ صعقاً، وها هي تخر خشية وهربا، لم تتحمل سنا النور، فبعد المكابدة والمعاناة و المناجاة يأتيها قبس من سنا النور، تقول:

ليالٍ عشر انبثقتْ .. كمال سطوعها بالقلب

جميع جوارحي سجدت .. و ذاتي في هواك الصَّب

توضأت بدمع البوح .. صليت صلاة الحب.

ما أحلى دموع الفرح! وما أصفى صلاة الحب! جائزة التبتل ومكافأة المحبوب للمحب، فتظفر في نهاية الدرب بمعجزة الرؤيا بغير نفاق، عندها تتبدد جميع أوزارها لتسكن هوة الأعماق:

تهاوى زيف أخيلتي .. تهاوت عِلة الإخفاق

أقام العشق معجزتي .. وما عرف الهُيام نفاق

نبذت جميع أوزاري .. ليملأ هوة الأعماق.

إذن لم يعد يسكنها إلا ذاك الحب، فقد صارت روحا بغير ذنوب، فكان لزاما عليها ولها أن تسعى وتنطلق

وتأتلق تقول:

وتسعى الروح يا ربُّ .. ومعها النفس تنطلق

و يعلو هيكلي يعلو .. ويرنو الليل والفلق

فبدئي أصل خاتمتي .. وفي الإطلاق تأتلق

نعم فالكون يرنو ويسعد، وهي تتماهي وتتصل فتكتمل، تعود إلى حيث البدء، روحا صافية من الأوزار والآثام، تسبح في بحور النعيم والنور، فقد آن الأوان للعروج وحانت محطة الوصول بعد محطات الوجد والمكابدة، فقد شُفيت من أدران الهوى و برأت من أمراض النفس، لتذوق حلاوة القرب تقول:

وتغرقني بحور النور .. عند نهاية الدرب

و أُعرّج نحو عليين .. عند سواطع الغيب

لقد أُفنيت من دائي .. وذقت حلاوة القرب.

فها هي قد وصلت فاتصلت، واتصلت فانقطعت، والتحفت بنورٍ من نور، والتحم الغصن بجزع العشق وحقيقة الأسماء:

على بُسط مُمردةٍ .. بلغت الموطئ الوضاء

وتحت جلال هذا العرش .. تكمن حكمة الأسماء

بفيض سناك ملتحفٌ .. أيا موسوعة الأسماء.

وهنا بعد الوصول تتجرد من الذات البشرية، لتصير روحا صافية بلا أسمال دنيوية، يلتحم البعض بكله الذي طالما اشتاق إليه، لتبدأ مرحلة الاتصال والانقطاع، والذوبان في ذات المحبوب، تتماهي وتتجلى فتبوح:

قميصي قد من قبلٍ .. تجاه شواطئ المعشوق

على أعتاب مولاي .. خلعت الهيكل المزهوق

وأسكب مسك شرياني .. حروف العاشقين بروق

وفي حضرة المحبوب تترع كأس الهوى نشوانا، بوحٌ يسكر، وسبحٌ في رحاب الحب ريانا، تعتريها شطحات وشطحات، تأخذها الجذبات علوية، فتذوب شوقا وهُياما في معراج روحها سر السر وحانة العشاق:

ذهبت لحانة الأشواق .. بوح الكأس أوحى لي

و جذبة حال أشواقي .. أذابت في الهوى حالي

إلى معراجي الروحيِّ .. سرُ هواك ترحالي.

نار الحضرة ونورها يذيب برودة الرحلة ويغسل غبار السنين الخوالي، فترتشف وتملأ كأس روحها من فيضه الدري، مُتجردةٍ من كل مشاعر الدنيا، تعيش في أحوال نورانية، طالما تاقت إليها، إنها الآن قد وصلت .. تقول:

و ها أنا بنار الحب تعلو جبهتي الغراء
و باسم الحب باسم الحب .. تمتلئ القلوب ضياء
وجئتك باسطا كفي .. وعريانا من البغضاء.

فتغني غناء الشوق والوصل وتنداح شغفا وفرحا في ذاته:

و أسمع عبر قافيتي .. حوار القوس للأوتار
(كماني) مُثقل بالشوق .. يا معزوفة الأسرار.
الآن تتصل، تلتحم، تتحد، تتماهى، فتذوب:
نبيذ الروح في كأسي .. وكأسي في نبيذ الروح
ومن بعضي سرى كلي .. يفضح سره ويبوح
كلانا في طقوس الحب .. ينزف شوقه المسفوح.

أصبحتْ في حال لا تدانيها حال، فقد تجردت إلا من لباس الشوق والنجوى، تهز بلحن الحب عارية، لا خوف أو استحياء، فما هي إلا بعضٌ التحم بكله، وهذا أرقى مراتب الوصول:

اتخذت العشق لي زادا .. أمد الروح بالتقوى
وما استحييت من عشق .. تعرى فيه من يهوى
أهز بجذع خارطتي .. فتسقط أحرفي نشوى.

وهناك تكون صلاتها بغير ركوع أو سجود، فقد ارتقت فوق الأغيار والطبيعة البشرية، فقد صارت روحا صافية وفقط، حال المريدين غيرُ، وصلاتهم غيرُ، شعائرهم ونسكهم غيرُ، هناك تختلف الشعائر والمناسك و الأركان تقول :

من الإجمال للتفصيل .. كنزك مجمع الإمداد

صلاةُ محبتي ذِكــرٌ .. يُشّيد منزل الإعــداد

وأخرج من هوى نفسي .. خروج الروح من أجساد.

تسكرُ بخمر الروح ومُدامة الوصول، تصير نوراً من نور، فتضيء الحضرة بنور مشكاتها الذي صارت به نورا من نور، نعم فللعاشقين في حضرة المحبوب شئون :

شربت مدلهمة المعشوق .. غرد قلبي المشبوب

أنا طين و مشكاة .. تضيء اللوح بالمكتوب.

وهنا تأتي مرحلة التسبيح والتغنى، مرحلة الفرح والتسبيح والتحميد والعرفان، فرغم ما صارت إليه فهي المتصوفة غير الجانحة جنوح الخارجين عن مناط التأدب، وهذا ما يجعلنا طوال حديثنا نُصر على كلمة (متصوفة) وليست (صوفية)، والفرق أكيد واضح، فمن يصل إلى مرحلة التصوف لا يجعل هناك حواجز أو حدود، يتجرءون ولو بظاهر اللفظ على

قدس الأقداس، يشفع لهم سكرهم بخمر الحب، ويتناسون طبيعتهم البشرية، ولكن متصوفتنا العاشقة، جنوحها له حدود، يستطيع القارئ الكريم أن يلحظ ذلك من خلال ألفاظ الديوان التي تُقر فيه بعبوديتها وببشريتها حتى وهي في حالة الوصل والذوبان، وبعدما صارت روحا وبعضا التحم بكله، لكنها المدركة لجلاله وقدسه، تعرف ماهيته وماهيتها مهما وصلت أو اتصلت، تلتحم وتتصل، لكن لا تتعدى الحدود، ولم يُنسها شطحها وجذبتها المتصوفة تلك الحدود فتبدأ مرحلة التغني والتسبيح والإجلال في الحضرة تقول:

أحبك قدر ما في الكون .. من حبٍّ ومن أشواق

هو الأسمى هو الأعلى .. إلهي مجمع الإشراق

وأرجع عن ذنوب الأمس .. أُكمل رحلة العشاق.

فهي المتصوفة العاشقة التي رغم وجودها في جلال النور والحضرة، لا تنسى مقامها وقدره لحظة تقول:

لك الميقات و الصلوات .. و الدعوات و الأسماء

هنا حيث الجمال الحق .. تخفق باسمه الأشياء

أحبك منذ بدء البدء .. منذ تنهدتْ حواء.

تسبح وتسبح وتسبح وهي الموقنة أن التسبيح سر عروجها إليه:

لك الحمد لك الملكوت .. و الأقدار و الأدلاء

لك التسبيح و الترتيل .. والصلوات والأسماء

و أنت تقلب الألبابَ .. في كفيك حين تشاء

نعم إنها المتصوفة التي لا تتخلى عن مرجعيتها الأصولية، وما كل ذاك التسبيح إلا دليل صدق على تصوفها، وليس صوفيتها، ودليل صدق على أنها تجربة متصوفة ثرية، لكن بعقل وروح امرأة القرن العشرين ذات المرجعية الأصولية التي لم تستطع أن تتحرر من ثقافتها الأصولية المبنية على حقائق الشرع، ولم تتجاوز حدودها حتى في مقام العشق والتجلى، وحين الالتحام

والوصل، فنهاك عبر مدارج أقطاب الصوفية لا تجد أي حَد أو أية أستار، عندهم تتماهى كل الحدود وتُرفع كل الستائر بدون خشية من فهم خاطيء، فقد انقطعوا عن الدنيا وعن الأغيار، فصاروا الكل في واحد، وصاروا هم هو، وهو هم، ولكن شاعرتنا المتصوفة تمسك بذلك الخيط ببراعة محافظة وأصولية، ولم تنفلت بعد .. تقول:

صباح المجد و الملكوت .. و الأقدار والأسرار

ومن مست يداه الكون .. فانداحت به الأنوار

ومن سجدت له الأطيار .. و الأنهار والأشجار.

فنراها تقر وتعترف عبر أمواج ديوانها، وفي كل الأحوال أنها الناقصة حتى في مرحلة الاكتمال:

و (زينبُ) حلم (فينوس) التي خرجت من الأصداف

و فوق الموج حالمة.. تهادي شوقها الزفزاف

ونقصي فيك مكتمل .. لأنك كامل الأوصاف.

وفي نهاية تلك الرحلة الروحانية الطيبة، تصل إلى ما كانت تتوق إليه بروحها الشغوف المتوثبة إلى معرفة سر حقيقة الأسماء، فترى الأشياء على حقيقتها من علٍ دون غمام أو لبس أو غموض تقول:

عرفت حقيقة الأسماء والأبعاد في لمحة

أسبح باسمك اللهم بالإمداد والنفحة

لأن السر في الأسماء، ليس السر في السبحة.